أربع سنوات الفارق بين استشهاد الحسين وقتل كل من شارك في قتله

عليه خوفاً من ألا يجيبهم ابن الحنفية بما يجب فيتفرق عنه الناس فكان يريد النهوض بأصحابه قبل قدومهم من المدينة فلم يتيسر له ذلك فلم يكن إلا شهر أو زيادة حتى قدموا الكوفة فدخلوا على المختار قبل دخولهم الى بيوتهم فقال لهم ما وراءكم قد فتنتم وارتبتم فقالوا له: إنا قد أمرنا بنصرك فقال الله أكبر انا أبو اسحاق اجمعوا لي الشيعة فجمع منهم من كان قريباً إليه فقال لهم إن نفراً قد أحبوا ان يعلموا مصداق ما جئت به فرحلوا الى إمام الهدى والنجيب المرتضى ابن خير من مشى حاشا النبي المجتبى فاعلمهم اني وزيره وظهيره ورسوله وأمركم باتباعي وطاعتي فيما دعوتكم اليه من قتال المحلين والطلب بدماء أهل بيت نبيكم المصطفين فقام عبدالرحمن بن شريح وأخبرهم ان ابن الحنفية امرهم بمظاهرته وموازرته وقال فليبلغ الشاهد الغائب واستعدوا وتأهبوا وقام اصحابه فتكلموا بنحو من كلام وكان اول من أجاب المختار الى ذلك عامر الشعبي وابوه شراحيل وقال جماعة للمختار أن أشراف أهل الكوفة مجتمعون على قتالك مع ابن مطيع فان اجابنا الى أمرنا إبراهيم بن مالك الأشتر رجونا القوة على عدونا فإنه فتى رئيس وابن رجل شريف له عشيرة ذات عز وعدد فقال لهم المختار فالقوه فادعوه واعلموه الذي امرنا به من الطلب بدم الحسين عليه السلام واهل بيته فخرجوا اليه ومعهم الشعبي فاتوه واعلموه عزمهم على الطلب بدماء اهل البيت عليه السلام وسألوه مساعدتهم على ذلك وذكروا له ما كان ابوه عليه من ولاء علي عليه السلام واهل بيته فقال لهم اني قد اجبتكم الى الطلب بدم الحسين عليه السلام وأهل بيته على أن تولوني الامر فقالوا له أنت أهل لذلك ولكن ليس إلى ذلك سبيل هذا المختار قد جاءنا من قبل إمام الهدى ومن نائبه محمد ابن الحنفية وهو المأمور بالقتال وقد أمرنا بطاعته فسكت ابراهيم ولم يجبهم فانصرفوا عنه وأخبروا المختار فمكث المختار ثلاثاً ثم دعا جماعة من اصحابه فدخلوا عليه وبيده صحيفة مختومة بالرصاص فدفعها الشعبي وقال لأصحابه انطلقوا بنا الى ابراهيم بن الاشتر فسار في بضعة عشر رجلاً من وجوه اصحابه وفيهم الشعبي وابوه فدخلوا على ابراهيم فالقى لهم الوسائد فجلسوا عليها وجلس المختار معه على فراشة فقال له المختار إن الله اكرمك واكرم اباك من قبلك بموالاة بني هاشم ونصرتهم ومعرفة فضلهم ما أوجب الله من حقهم وهذا كتاب محمد بن علي أمير المؤمنين وهو خير أهل الأرض اليوم وابن خير اهل الارض كلها قبل اليوم بعد انبياء الله ورسله يأمرك أن تنصرنا وتوازرنا فان فعلت اغتبطت وان امتنعت فهذا الكتاب حجة عليك وسيغني ادفع الكتاب إليه فدفعه اليه الشعبي فدعا بالمصباح وفض خاتمه وقرأه فإذا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد المهدي الى ابراهيم بن مالك الاشتر سلام عليكم فاني احمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فإني قد بعثت إليكم وزيري وأميني الذي ارتضيه لنفسي وقد أمرته بقتال عدوي والطلب بدماء أهل بيتي فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن اطاعك فانك ان نصرتني واجبت دعوتي كانت لك بذلك عندي فضيلة ولك اعنة الخيل وكل جيش غاز وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة واقصى بلاد الشام فلما فرغ إبراهيم من قراءة الكتاب قال قد كتب لي ابن الحنفية قبل اليوم وكتبت اليه فلم يكتب إلي إلا باسمه واسم ابيه قال المختار ذلك زمان وهذا زمان قال إبراهيم فمن يعلم ان هذا كتابه فشهد جماعة ممن معه بذلك منهم يزيد بن انس واحمر بن شميط وعبدالله بن كامل وسكت الشعبي وابوه فتأخر ابراهيم عند ذلك عن صدر الفراش واجلس المختار عليه وبايعه ابراهيم فقال المختار أتاتينا أو نأتيك في أمرنا فقال ابراهيم بل أنا آتيك كل يوم ودعا بفاكهة وشراب من عسل فاكلوا وشربوا وخرجوا فخرج معهم ابن الاشتر وركب مع المختار ثم رجع ابراهيم ومعه الشعبي الى دار إبراهيم فقال له يا شعبي إني قد رأيتك لم تشهد أنت ولا أبوك فترى هؤلاء شهدوا على حق قال له الشعبي قد شهدوا على ما رأيت وهم سادة القراء ومشيخه المصر وفرسان العرب ولا أرى مثل هؤلاء يقولون الا حقاً قال الشعبي قلت له هذه المقالة وأنا والله لهم على شهادتهم متهم غير أنه يعجبني الخروج وأنا أرى اليوم وأحب تمام ذلك الأمر فلم اطلعه على ما في نفسي ثم كتب إبراهيم اسماءهم وتركها عنده وكان إبراهيم رحمه الله تعالى ظاهر الشجاعة وارى زناد الشهامة نافذ حد الصرامة مشمراً في محبة أهل البيت عن ساقيه متلقياً غاية النصح لهم بكلتا يديه فجمع عشيرته واخوته ومن اطاعه واقبل يختلف الى المختار كل عشية عنه المساء في نفر من مواليه وخدمه يدبرون امورهم فيبقون عامة الليل وكان حميد بن مسلم الأسدي صديقاً لإبراهيم بن الأشتر فكان يذهب به معه الى المختار واجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة بقيت من ربيع الأول وقيل لآخره سنة ست وستين فلما كان ليلة الثلاثاء وقيل الأربعاء عند المغرب قام إبراهيم فأذن وصلى المغرب باصحابه ثم خرج يريد المختار وعليه وعلى أصحابه السلاح وكان إياس بن مضارب صاحب شرطة عبدالله بن مطيع أمير الكوفة فأتاه فقال له ان المختار خارج عليك في احدى هاتين الليلتين فخذ حذرك منه. ثم خرج إياس فبعث ابنه راشداً الى الكناسة وأقبل يسير حول السوق في الشرطة ثم دخل على ابن مطيع فقال له اني قد بعثت ابني الى الكناسة فلو بعثت في كل جبانة عظيمة بالكوفة رجلاً من أصحابك في جماعة من أهل الطاعة لهاب المختار وأصحابه الخروج عليك فبعث ابن مطيع الى الجبانات من شحنها بالرجال وأوصى كلاً منهم ان يحفظ الجهة التي هو فيها وبعث شبث بن ربعي الى السبخة وقال اذا سمعت صوت القوم فوجه نحوهم وكان ذلك يوم الاثنين وخرج ابراهيم بن الاشتر يريد المختار ليلة الثلاثاء و قد بلغه ان الجبانات قد ملئت رجالاً وان اياس بن مضارب في الشرطة قد احاطوا بالسوق والقصر فاخذ معه من اصحابه نحو مائة رجل عليهم الدروع وقد لبسوا عليها الاقبية وتقلدوا بالسيوف وقال له اصحابه تجنب الطريق فقال: والله لأمرن وسط السوق بجنب القصر ولأرعين به عدونا ولأريهم هوانهم علينا فسار على باب الفيل ثم على دار عمرو بن حريث فلقيهم اياس بن مضارب في الشرطة مظهرين السلاح فقال اياس ما هذا الجمع الذي معك وما تريد والله إن امرك لمريب فقد بلغني انك تمر كل عشية من هاهنا وما انا بتاركك حتى آتي بك الأمير فيرى فيك رأيه فقال ابراهيم اما هذا فلا أفعل وكان مع اياس بن مضارب رجل من همدان يقال له ابو قطن وكان يصحب امراء الشرطة فهم يكرمونه وكان صديقاً لابن الاشتر ومن عشيرته فقال له ابن الاشتر ادن مني يا قطن فظن انه يريد أن يطلب منه ان يشفع له عند اياس فدنا منه وكان مع ابي قطن رمح طويل فتناوله منه ابن الاشتر وهو يقول ان رمحك هذا لطويل وحمل به على اياس فطعنه في ثغرة نحره فصرعه وأمر رجلاً من قومه فاحتز رأسه وانهزم أصحاب اياس ورجعوا الى ابن مطيع فاخبروه فبعث راشد بن اياس مكان ابيه على الشرطة وبعث مكان راشد سويداً المنقري الى الكناسة واقبل ابن الاشتر الى المختار وقال له إنا اتعدنا الخروج في الليلة القابلة وقد عرض امر لا بد معه من الخروج الليلة قال ما هو قال عرض لي اياس في الطريق فقتلته وهذا رأسه مع اصحابي على باب فاستبشر المختار بذلك وتفاءل بالنصر والظفر وقال هذا اول الفتح ان شاء الله تعالى ثم قال قم يا سعيد بن منقذ وأشعل النار في القصب ثم ارفعها للمسلمين وأمر مناديه أن ينادي يا لثارات الحسين ثم دعا بدرعه وسلاحه فلبسه وهو يقول:

قد علمت بيضاء حسناء الطلل
واضحة الخدين عجزاء الكفل
إني غداة الروع مقدام بطل
لا عاجز فيها ولا وعد فشل

ثم قال له إبراهيم : إن هؤلاء الذين في الجبانين يمنعون أصحابنا من إتيانا فلو سرت إلى قومي بمن معي فاتيتني كل من بايعني من قومي وسرت بهم في نواحي الكوفة ودعوت بشعارنا لخرج إلينا من أراد الخروج فمن أتاك أبقيته عندك فإن جاءك عدو كان معك من تمتنع به فإذاً فرغت أنا عجلت الرجوع إليك فقال له المختار: إفعل وعجل وإياك أن تسير إلى أميرهم فاغتنم ما دخلهم من الرعب فقال: ولكن ناتي صاحبنا أي المختار يؤمن الله بنا وحشته ويعلم ما كان من نصرنا له فيزداد هو وأصحابه قوة ولا آمن أن يكون جاء أعداؤه فسار إبراهيم حتى أتى باب المختار فسمع الأصوات عالية والقوم يقتتلون وكان قد جاء شبث بن ربعي من قبل السبخة فعبأ له المختار يزيد بن أنس، وجاء حجار بن أبجر فجعل المختار في وجهه أحمر بن شميط فبينما الناس يقتتلون إذ جاء إبراهيم من قبل القصر فبلغ حجاراً وأصحابه أن إبراهيم قد جاءهم من ورائهم فتفرقوا في الأزقة قبل أن يأتيهم إبراهيم وجاء رجل من أصحاب المختار اسمه قيس بن طهفة النهدي في قريب من مائة رجل من بني نهد فحمل على شبث وهو يقاتل يزيد بنانس فخلى لهم شبث الطريق حتى اجتمعوا جميعاً وجاء عبدالله بن الحر الجعفي في قومه لنصرة المختار، ثم أن شبثاً ترك لهم السكة وأقبل إلى ابن مطيع، فقال له: إجمع الأمراء الذين في الجبابين وجميع الناس ثم أخرج إلى هؤلاء القوم فقاتلهم فإن أمرهم قد قوي وقد خرج المختار وظهر وقوي أمره فلما بلغ المختار قوله خرج في جماعة من أصحابه حتى نزل في ظهر دير هند في السبخة وخرج أبو عثمان النهدي من أصحاب المختار فنادى في بني شاكر وهم مجتمعون في دورهم يخافون أن يظهروا لقرب كعب الخثعمي منهم وهو من أصحاب أياس وكان قد أخذ عليهم أفواه السكك فلما أتاهم أبو عثمان في جماعة من أصحابه نادى يا لثارات الحسين يا منصور أمت يا أيها الحي المهتدون إن أمين آل محمد ووزيرهم قد خرج فنزل دير هند وبعثني إليكم داعياً ومبشراً فأخرجوا رحمكم الله، فخرجوا ينادون يا لثارات الحسين، وقاتلوا كعباً حتى خلوا لهم الطريق فأقبلوا إلى المختار فنزلوا معه وخرج عبدالله بن قتادة (قراد خ ل) الخثعمي في نحو من مائتين فنزلو معالمختار وكان قد تعرض لهم كعب فلما عرف أنهم من قومه خلى عنهم وخرجت شبام وهم حي من همدان من آخر ليلتهم فبلغ خبرهم عبدالرحمن بن سعيد الهمداني فأرسل إليهم إن كنتم تريدون المختار فلا تمروا من ناحيتنا فلحقوا بالمختار حتى اجتمع عنده ثلاثة آلاف وثمانمائة قبل الفجر وكان قد بايعه إثنا عشر ألفاً وكان ممن خرج معه حميد بن مسلم، فاصبح المختار وقد فرغ من تعبئة جيشه فصلى بأصحابه في الغلس (أي الظلمة) وأرسل ابن مطيع إلى من بالجبابين أن يأتوا المسجد وأمر راشد بن أياس صاحب شرطته فنادى في الناس برئت الذمة من رجل لم يأت المسجد الليلة فاجتمعوا فبعث ابن مطيع شبث بن ربعي في نحو ثلاثة آلاف وثلاثة آخرين في ثلاثة آلاف وتتابعت العساكر إلى نحو من عشرين ألفاً فلما صلى المختار الغداة سمعوا أصواتاً مرتفعة، فقال المختار: من ياتينا بخبر هؤلاء؟ فقال له رجل: أنا أصلحك الله، قال المختار: فالق سلاحك واذهب حتى تدخل فيهم كأنك متفرج وائتنا بخبرهم، قال الرجل: فلما دنوت منهم إذا مؤذنهم يقيم وإذا شبث بن ربعي ومعه خيل عظيمة فصلى بهم فقرأ إذا زلزلت الأرض زلزالها فقلت في نفسي: أما والله إني لأرجو أن يزلزل الله بكم، ثم قرأ والعاديات ضبحاً، فقال له أناس من أصحابه: لو كنت قرأت أطول من هاتين السورتين شيئاً، فقال ترون الديلم قد نزلت بساحتكم وأنتم تقولون لو قرأت سورة البقرة وآل عمران مما دل على وقوع الرعب في قلبه فأقبل الرجل إلى المختار وأخبره بخبر شبث وأصحابه وأتاه أيضاً سعر الحنفي يركض وكان ممن بايع المختار فلم يقدر على الخروج معه ليلة خرج خوفاً من الحرس فلما أصبح أقبل على فرسه فاعترضه راشد بن أياس وأصحابه فركض على فرسه وأفلت منهم حتى أتى المختار فأخبره بخبرهم، فبعث المختار إبراهيم بن الأشتر إلى راشد بن أياس في تسعمائة (سبعمائة خ ل) وقيل: في ستمائة فارس وستمائة راجل، وبعث نعيم بن هبيرة أخا مصقلة بن هبيرة إلى شبث بن ربعي في ثلاثمائة فارس وستمائة راجل وأمرهما بتعجيل القتال وأن لا يقفا مقابلة عدوهما لأنه أكثر منهما، وقال: لا ترجعا حتى تظهرا أو تقتلا، فتوجه إبراهيم إلى راشد وتوجه نعيم بن هبيرة إلى شبث وقدم المختار أمامه يزيد بن أنس في تسعمائة، فأما نعيم فجعل سعر الحنفي على الخيل ومشى هو في الرجالة وقاتل شبثاً قتالاً شديداً حتى أشرقت الشمس وانبسطت وضربهم أصحاب نعيم حتى أدخلوهم البيوت منهزمين فناداهم شبث وحرضهم فرجع إليه منهم جماعة فحملوا على أصحاب نعيم وصبر هو فقتل وأسر سعر ومع رجلان أحدهما مولى فقتله شبث وأطلق الآخرين لأنهما عربيان فأتيا المختار فاغتم أصحاب المختار لذلك غماً شديداً وأخبره أحد الرجلين بما كان من أمره فقال له: أسكت فليس هذا بمكان الحديث، وجاء شبث حتى أحاط بالمختار ويزيد بن أنس وبعث ابن مطيع يزيد بن الحارث بن رويم في ألفين فوقفوا في أفواه السكك وولى المختار يزيد بن أنس على الخيل وخرج هو في الرجالة فحملت عليهم خيل شبث حملتين فلم يبرحوا من مكانهم فقال لهم يزيد بن أنس: يا معشر الشيعة قد كنتم تقتلون وتقطع أيديكم وأرجلكم وتسمل أعينكم وترفعون على جذوع النخل في حب أهل بيت نبيكم وأنتم مقيمون في بيوتكم مطيعون لعدوكم فما ظنكم بهؤلاء القوم إن ظهروا عليكم اليوم إذاً والله لا يدعون منكم عيناً تطرف وليقتلنكم صبراً ولترون منهم في أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموت خير منه والله لا ينجيكم منهم إلا الصدق والصبر والطعن الصائب في أعينهم والضرب الدراك على هامهم فتيسروا للشدة وتهيأوا للحملة فإذا حركت رايتي مرتين فاحملوا فتهيأوا واجثوا على الركب وانتظروا أمره.

(وأما إبراهيم) ابن الأشتر فإنه أقبل نحو راشد بن أياس، فإذا معه أربعة آلاف، فقال إبراهيم لأصحابه لا يهولنكم كثرة هؤلاء فوالله لربَّ رجل خيرٌ من عشرة، ولرب فئة قليلة قد غلبت فئة كثيرة بإذن الله مع الصابرين، ثم قال لخزيمة بن نصر سر إليهم في الخيل وأخذ هو يمشي في الرجالة ويقول لصاحب رايته تقدم برايتك أمض بها قدماً واقتتل الناس قتالاً شديداً وحمل خزيمة بن نصر العبسي على راشد فطعنه فقتله، ثم نادى قتلت راشداً ورب الكعبة، وانهزم أصحاب راشد وأقبل إبراهيم بن الأشتر، وخزيمة بن نصر ومن معهما بعد قتل راشد نحو المختار وأرسل البشير إلى المختار بقتل راشد فكبر هو وأصحابه وقويت نفوسهم ودخل أصحاب ابن مطيع الفشل وأرسل ابن مطيع حساناً العبسي في نحو من الفين ليعترض إبراهيم بن الأشتر فتقدم إليهم إبراهيم فانهزموا من غير قتال، وأقبل إبراهيم نحو المختار وشبث بن ربعي محيط به فلما رآه يزيد بن الحارث الذي كان على أفواه السكك مقبلاً نحو شبث أقبل نحوه ليرده عن شبث وأصحابه فبعث إبراهيم إليه طائفة من أصحابه مع خزيمة بن نصر وسار هو نحو شبث فيمن بقي معه فلما أقبل إبراهيم نحو شبث جعل شبث أصحابه ينكصون إلى الوراء قليلاً قليلاً فلما دنا منهم إبراهيم حمل عليهم وأمر يزيد بن أنس أن يحمل عليهم ففعل فانهزموا حتى وصلوا إلى بيوت الكوفة وحمل خزيمة بن نصر على يزيد بن الحارث فهزمه وأصحابه وازدحموا على أفواه السكك وكان يزيد بن الحارث قد وضع الرماة على أفواه السكك فوق البيوت، وأقبل المختار فلما انتهى إلى أفواه السكك رمته الرماة بالنبل فصدوه عن دخول الكوفة من ذلك الوجه، ورجع الناس منهزمين إلى ابن مطيع وجاءه قتل راشد بن أياس فسقط في يده أي بهت وتحير فقال له عمرو بن الحجاج أيها الرجل لا تلق بيدك وأخرج إلى الناس وانذبهم إلى عدوك فإن الناس كثير وكلهم معك إلا هذه الطائفة التي خرجت والله يخزيها وأنا أول منتدب فانتدب معي طائفة ومع غيري طائفة فخرج ابن مطيع فقام في الناس ووبخهم على هزيمتهم وأمرهم بالخروج إلى المختار وأصحابه (وأما المختار) فإنه لما منعه الرماة من دخول الكوفة عدل إلى بيوت مزينة وأحمس وبارق وبيوتهم منفردة فاستقبلوه بالماء فشرب أصحابه ولم يشرب هو لأنه كان صائماً فقال أحمر بن شميط لابن كامل أترى الأمير صائماً، قال: نعم قال: لو أفطر كان أقوى له قال: هو أعلم بما يصنع، قال: صدقت استغفر الله، فقال المختار: نعم المكان للقتال هذا فقال له إبراهيم: قد هزمهم الله وفلهم وأدخل الرعب في قلوبهم، وتنزل ههنا سر بنا فوالله ما دون القصر مانع فترك الرماة هناك كل شيخ ضعيف وكل ذي علة وثقلهم واستخلف عليهم أباعثمان النهدي وقدم إبراهيم أمامه وبعث ابن مطيع عمرو بن الحجاج في ألفين فخرج عليهم فبعث المختار إلى إبراهيم أن أطوه ولا تقم عليه فطواه إبراهيم وأمر المختار يزيد بن أنس أن يصمد لعمرو بن الحجاج فمضى نحوه وسار المختار خلف إبراهيم ثم وقف المختار في موضع مصلى خالد بن عبدالله وأمر إبراهيم أن يمضي على وجهه حتى يدخل الكوفة من جهة الكناسة فمضى فخرج إليه شمر بن ذي الجوشن في ألفين فسرح إليه المختار سعيد بن منقذ الهمداني فواقعه وأرسل إلى إبراهيم أن أطوه وامض على وجهك فمضى حتى انتهى إلى سكة شبث فإذا نوفل بن مساحق في ألفين وقيل خمسة آلاف قال الطبري وهو الصحيح وكان ابن مطيع أمر منادياً فنادى في الناس أن الحقوا بابن مساحق وخرج ابن مطيع فوقف بالكناسة واستخلف شبث بن ربعي على القصر فدنا ابن الأشتر من ابن مطيع فأمر أصحابه بالنزول فنزلوا فقال: قربوا خيولكم بعضها من بعض، ثم امشوا إليهم مصلتين بالسيوف ولا يهولنكم أن يقال جاء آل فلان وآل فلان وسمى بيوتات أهل الكوفة ثم قال: إن هؤلاء لو وجدوا حر السيوف لانهزموا عن ابن مطيع انهزام المعزى من الذئب ففعلوا ذلك وأخذ ابن الأشتر أسفل قبائله فادخله في منطقته وكان قد لبس القباء فوق الدرع ثم قال لأصحابه شدوا عليهم فدى لكم عمي وخالي فلم يلبثوا أن انهزموا يركب بعضهم إلى بعض على أفواه السكك وازدحموا وانتهى ابن الأشتر إلى ابن مساحق فأخذ بلجام دابته ورفع السيف ليقتله فسأله أن يعفو عنه فخلى سبيله وقال اذكرها لي فكان يذكرها له ودخلوا الكناسة في آثارهم حتى دخلوا السوق والمسجد وحصروا ابن مطيع ومع الأشراف غير عمرو بن حريث فإنه خرج إلى البر وجاء المختار حتى نزل جانب السوق وولى إبراهيم بن الأشتر حصار القصر ومعه يزيد بن أنس وأحمر بن شميط فحصروا القصر من ثلاث جهات ثلاثة أيام، وأشرف رجل من أصحاب ابن مطيع عشية على أصحاب المختار فجعل يشتمهم فرماه رجل منهم بسهم فأصاب حلقه فقطع الجلد فوقع ثم برأ بعد ذلك وجعل ابن مطيع يفرق على أصحابه الدقيق وهو محصور واشتد عليهم الحصار وأقبلت همدان حتى تسلقوا القصر بالحبال فلما رأى ابن مطيع وأصحابه ذلك أشار عليه شبث أن يأخذ لنفسه أماناً فكره ذلك فأشار عليه أن يخرج خفية إلى دار من دور الكوفة ثم يلحق بابن الزبير فقبل وخرج ليلاً فدخل دار أبو موسى وخلى القصر ففتح أصحابه الباب، وجاء ابن الأشتر فطلب من بالقصر الأمان فأمنهم فخرجوا فبايعوا المختار وجاء المختار حتى دخل القصر فبات فيه وأصبح الأشراف في المسجد وعلى باب القصر وخرج المختار فصعد المنبر وخطب الناس وقال: **انا المسلط على المحلين الظالب بدم ابن نبي رب العالمين.** إلى أن قال: **ادخلوا فبايعوا بيعة هدى فوالله ما بايعتم بعد بيعة علي بن أبي طالب عليه السلام وآل علي عليهم السلام اهدى منها ثم نزل فدخل عليه اشراف الكوفة فبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله والطلب بدماء اهل البيت وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا.** وأحسن المختار السيرة جهده وفي ذلك يقول الشاعر:

ولما دعا المختار جدنا لنصره
على الخيل تردى من كميت واشقرا
دعا يا لثارات الحسين فاقبلت
تعادى بفرسان الصياح لتثارا

وبلغه أن ابن مطيع في دار أبي موسى فأرسل إليه مائة ألف درهم، وقال: تجهز بها. وكان بينهما صداقة فأخذها ومضى إلى البصرة، ووجد المختار في بيت المال تسعة آلاف درهم وفرق العمال على أرمينية وأذربيجان والموصل والمدائن وحلوان والري وهمدان وأصبهان وغيرها ودانت له البلاد كلها إلا الحجاز والجزيرة والشام ومصر والبصرة واستعمل على شرطته عبدالله بن كامل الشاكري وعلى حرسه كيسان أبا عمرة مولى عريفة «بجيله خ ل» وصار يجلس للقضاء بين الناس ثم أقام شريحاً للقضاء، وكانوا يقولون إنه عثماني وإنه ممن شهد على حجر بن عدي وأنه لم يبلغ عن هاني بن عروة ما أرسله به وأن علياً عليه السلام عزله عن القضاء، فأراد المختار عزله فتمارض فعزله وجعل مكانه غيره، وقال عبدالله بن همام يذكر المختار وأصحابه ويمدحهم:

وفي ليلة المختار ما يذهل الفتى
ويلهيه عن رؤد الشباب شموع
دعا يا لثارات الحسين فاقبلت
كتائب من همدان بعد هزيع
ومن مذحج جاء الرئيس ابن مالك
يقود جموعاً أردفت بجموع
ومن أسد وافى يزيد لنصره
بكل فتى حامي الذمار منيع
وجاء نعيم خير شيبان كلها
وما ابن شميط إذ يحرض قومه
هناك بمخذول ولا بمضيع
وسار أبو النعمان لله سعيه
إلى ابن أياس مصحراً لوقوع
نحيل عليها يوم هيجاً دروعها
وأخرى حسوراً غير ذات دروع
فكر الخيول كرة ثقفتهم
وشد باولاها على ابن مطيع
فولى بضرب يشدخ الهام وقعه
وطعن غداة السكتين وجيع
فحوصر في دار الامارة بائياً
بذل وإرغام له وخضوع
فمن وزير ابن الوصي عليهم
وكان لهم في الناس خير شفيع
وآب الهدى حقاً إلى مستقره
بخير إياب آبه ورجوع
إلى الهاشمي المهتدي المهتدى به
فنحن له من سامع ومطيع

ذكر قتل المختار قتلة الحسين عليه السلام والمشايعين على قتله

كان مروان بن الحكم بعد أن بويع له بالشام أرسل عبيدالله بن زياد في جيش إلى الجزيرة، فإذا فرغ منها سار إلى العراق كما تقدم وجعل له كل ما غلب عليه وأمره أن ينهب الكوفة إن ظفر بأهلها ثلاثاً، ثم كان من أمره مع التوابين ما تقدم ذكره وكان زفر بن الحارث الكلابي ومعه قبيلة تسمى قيس عيلان بالجزيرة على طاعة ابن الزبير فلم يزل ابن زياد مشتغلاً بهم عن العراق نحو سنة فهلك مروان وولي بعده ابنه عبدالملك فأقر ابن زياد على ما كان أبوه ولاه فلما عجز ابن زياد عن زفر ومن معه بالجزيرة أقبل إلى الموصل وهي للمختار فتنحى عامل المختار إلى تكريت وكتب إلى المختار يخبره بذلك فكتب إليه المختار يصوب رأيه ويأمره ألا يفارق مكانه حتى يأتيه أمره وأرسل المختار يزيد بن أنس الأسدي وانتخب معه ثلاثة آلاف فارس ووعده المدد متى احتاج وشيعة وقال: إذا لقيت عدوك فلا تناظرهم وإذا أمكنتك الفرصة فلا تؤخرها وليكن خبرك كل يوم عندي وكتب إلى عامل الموصل أن يخلي بينه وبين البلاد فسار حتى أتى أرض الموصل فبلغ خبره ابن زياد فقال: لأبعثن إلى كل ألف ألفين فأرسل إليه ستة آلاف ثلاثة مع ربيعة الغنوي وثلاثة مع عبدالله بن جمة الخثعمي فسار ربيعة قبل عبدالله بيوم حتى لقي يزيد بن أنس فخرج يزيد بن أنس وهو مريض شديد المرض راكب على حمار يمسكه الرجال فوقف على أصحابه وعباهم وحثهم على القتال ثم وضع بين الرجال على سرير وقال قاتلوا عن أميركم إن شئتم أو فروا عنه وجعل يأمر الناس بما يفعلونه ثم يغمى عليه ثم يفيق واقتتل الناس عند فلق الصبح يوم عرفة فاشتد القتال إلى ارتفاع الضحى فانهزم أهل الشام وأخذ عسكرهم ووصل أهل العراق إلى أميرهم ربيعة وقد انهزم عنه أصحابه وهو يناديهم ويحرضهم على القتال ويقول إنما تقاتلون من خرج من الإسلام فاجتمع إليه جماعة فقاتلوا معه واشتد القتال وخرج رجل من أهل العراق يعترض الناس بسيفه وهو يقول:

برئت من دين المحكمينا
وذاك فينا شر دين دينا

ثم انهزم أهل الشام وقُتل أميرهم ربيعة، فسار المنهزمون ساعة فلقيهم عبدالله الخثعمي الأمير الثاني لأهل الشام في ثلاثة آلاف فرد معه المنهزمين وجاء إلى الموضع الذي فيه أصحاب المختار فباتوا ليلتهم يتحارسون فلما أصبحوا يوم عيد الأضحى خرجوا إلى القتال واقتتلوا قتالاً شديداً ثم نزلوا فصلوا الظهر ثم عادوا إلى القتال فانهزم أهل الشام هزيمة قبيحة وقتلوا قتلاً ذريعاً وحوى أهل العراق عسكرهم حتى انتهوا إلى أميرهم عبدالله فقتلوه وأسروا منهم ثلاثمائة أسير فامر يزيد بن أنس بقتلهم وهو في آخر رمق فقتلوا ثم مات آخر النهار فدفنه أصحابه وكسر قلوبهم موته وكان قد استخلف عليهم ورقاء بن عازب الأسدي فقال لأصحابه ماذا ترون أنه بلغني أن ابن زياد قد أقبل إليكم في ثمانين ألفاً وإني لا أرى لنا بأهل الشام طاقة فلو انصرفنا من تلقاء أنفسنا لقالوا إنما رجعنا عنهم لموت أميرنا ولم يزالوا لنا هائبين فقالوا: نعم ما رأيت فانصرفوا فبلغ ذلك المختار وأهل الكوفة فأرجف الناس بالمختار وقالوا: إن يزيد قتل ولم يصدقوا أنه مات فأرسل المختار إلى عامله بالمدائن يسأله عن ذلك فأخبره بموته وأن العسكر انصرف من غير هزيمة ولا كسرة فطاب قلب المختار فدعا إبراهيم بن الأشتر وأرسله وقال: إذا لقيت جيش يزيد بن أنس فأنت الأمير عليهم فاردهم معك حتى تلقى ابن زياد وأصحابه فتقاتلهم ثم ودعه وانصرف، فخرج إبراهيم فلما سار اجتمع أشراف الكوفة عند شبث بن ربعي وقالوا: إن المختار تأمر علينا بغير رضا منا ولقد أدنى موالينا أي عبيدنا فحملهم على الدواب وأعطاهم فيأتا فقال لهم شبث : دعوني حتى ألقاه فذهب إليه فلم يدع شيئاً أنكروه إلا ذكره له والمختار يقول: أنا أرضيهم وأفعل كلما أحبوا وفياكم لكم تقاتلون معي بني أمية وابن الزبير وتعطوني العهد على ذلك فقال شبث: حتى أرجع إلى أصحابي فأخبرهم فخرج ولم يرجع إلى المختار فاجمع رأيهم على قتاله وكان بقي مع المختار أربعة آلاف، فقال عبدالرحمن الأسدي لأهل الكوفة لا تخرجوا على المختار فإني أخاف أن تختلفوا وتفرقوا ومع الرجل شجعانكم ومواليكم وكلمتهم واحدة فانتظروا قليلاً يكفكم ذلك أهل الشام وأهل البصرة فلم يقبلوا وخرجوا على المختار بعد مسير إبراهيم بالجبانات كل رئيس بجبانة وجاهروا بالعصيان ولم يبق أحد ممن شرك في قتل الحسين عليه السلام وكان مختفياً إلا ظهر فلما بلغ ذلك المختار أرسل رسولاً مجداً إلى إبراهيم فلحقه وهو بساباط المدائن قرب بغداد وكتب إليه المختار ألا تضع كتابي من يدك حتى تقبل إليَّ بجميع من معك وبعث إليهم المختار أن أخبروني ما تريدون فإني أصنع كلما أحببتم قالوا: نريد أن تعتزلنا فإنك زعمت أن محمد بن الحنفية بعثك ولم يبعثك قال: فأرسلوا إليه وفداً من قبلكم وأرسل إليه أنا وفداً وهو يريد أن يطاولهم حتى يقدم عليه إبراهيم وأمر أصحابه أن يكفوا أيديهم وقد أخذ عليهم أهل الكوفة بأفواه السكك فليس يصل إليهم من الماء إلا القليل، ولما سار رسول المختار وصل إلى ابن الأشتر في عشية ذلك اليوم فتعشى أصحابه وأراحوا دوابهم قليلاً ثم سار ليلته كلها واليوم الثاني حتى وصل إلى الكوفة عند العصر وبات في المسجد ومعه من أصحابه أهل القوة والجلد، ثم إن المختار عبأ أصحابه وأرسل ابن الأشتر إلى مضر، وخشي أن